عبد الرحيم بنحادة | *Abderrahim Benhadda

ما بعد الهدنة:
الرد العثماني على مطالب زيدان السعدي

After the Armistice:
the Ottoman Response to Zidan Saadi's Petition

الوثيقة هذه موجودة ضمن كتاب "منشـئات السـلاطين" لفريدون بك، والكتاب عبارة عن مصنَّف جمع فيه المؤلف مراسلات وفرمانـات وأحكامًـا أصدرهـا سـلاطين الدولة العثمانيـة. تمثِّل الوثيقـةُ واحدة من المراسـلات التي صدرت عن السـلطان العثماني، وهي رسـالة وجهها السلطان أحمد الأول إلى الأمير زيدان السعدي بتاريخ صفر 1026 هـ/ 1617م في إثر الصراع الـذي دار بـين أبناء المنصور السـعدي حول العـرش، وتوجُّه الأمير زيدان لطلـب الدعم العثماني. وتتضمـن الوثيقة شرحًا للأسباب التي حالت دون التجاوب مع مطالب زيدان. وفي تقديم الوثيقة محاولة لتتبّع الصدى الذي كان لهذه الدعوة في مختلف المصادر المتوسطية، وللقول إن ما ورد في الوثيقة امتداد للسياسة التي سلكتها الدولة العثمانية في غرب البحر الأبيض المتوسـط منذ ثمانينيات القرن السـادس عشر، عندما أعلنت إسـبانيا والدولة العثمانية انسـحابهما من الصراع في العالم المتوسطي.

The author presents a document extracted from *Munseat us selatin* by Feridun Bey - a compendium of correspondence, edicts, and rulings of sultans of the Ottoman Empire. A letter sent by Sultan Ahmed I to Prince Zidan Saadi in the year 1617 (1026 Hijri) following the eruption of a conflict over the throne between al-Mansour Saadi's sons, and Prince Zidan's subsequent solicitation of Ottoman support, the document explains the reasons precluding a positive response from the Sultan to Zidan's request. In tracing the echoes of this call in a variety of Mediterranean sources, the author suggests that the document confirms and continues policy pursued by the Ottoman Empire in the western Mediterranean since the 1580s, when Spain and the Ottoman Empire announced their withdrawal from conflict in the Mediterranean world.

* أستاذ التاريخ في معهد الدوحة للدراسات العليا، قطر.

اقتنع العثمانيون وإمبراطورية الهابسبورغ في عام 1580[1]، بوضع حد لسنوات طويلة من الصراع، بدأت في عشرينيات القرن السادس عشرن، وتخللتها معارك بحرية لم تسفر إلاّ عن الخسائر في الأرواح والسفن، ولم تحسم الصراع. فقد تواجه الطرفان في معارك عدة من بينها معركة مالطة 1564، ومعركة ليبانتو 1571، ومعركة حلق الوادي في تونس 1574. وخلال كل مراحل الصراع، كانت ولايات الشمال الأفريقي حاضرة بقوة سواء من خلال محاربيها، أو من خلال التحصينات، أو من خلال العتاد الحربي المستعمل. ولعل ما يدلّ على هذا الحضور هو كثرة المراسلات التي تسبق هذه المعارك، إلى درجة يمكن القول معها، أنّ الدولة العثمانية كانت تخوض صراعها مع الهابسبورغ في غرب البحر الأبيض المتوسط بالوكالة.

وقد يتصوّر المرء أنّ المغرب الذي لم يمثّل جزءًا من الدولة العثمانية، لم يكن معنيًا بهذا الصراع، غير أنّ هذا الاعتقاد سرعان ما يتبدّد، عندما يطالع الباحث الأرشيفات المتوسطية التي تبرز بما لايدع مجالًا للشك، أنّ المغرب كان حاضرًا بقوة في كلّ مراحل هذا الصراع؛ فقد لجأ سلاطين المغرب إلى لعبة السياسة الواقعية في علاقاتهم الدولية؛ وذلك من أجل الحفاظ على استقلاليتهم تجاه الدولة العثمانية. ومن ثمّ كان اسم المغرب يتردّد في الوثائق التي تصف صراع الإمبراطوريتين. وكانت هذه السياسة لا تراعي ضوابط معينة، بل كانت تعطي الأهمية لموازين القوة، وعليه فقد كانت السياسة الدولية المغربية تتلوّن حسب ظرفيات هذا الصراع.

وعندما كان السفير الإسباني في إسطنبول يفاوض من أجل توقيع الهدنة، كان المغرب حاضرًا في المفاوضات، وكانت ورقة استقلال المغرب أو المحافظة على "ستاتيكو" من بين الأوراق التي استعملها الإسبان لاستبعاد أي خطر عثماني على المجالات الهابسبورغية في غرب البحر الأبيض المتوسط. وينبغي التذكير أن بداية هذه المفاوضات صادفت انتصار المغرب في معركة وادي المخازن في 4 آب/ أغسطس 1578، وما تلا ذلك من استقرار سياسي في البلاد؛ إذ استفاد المغرب من الظرفية الجدية في المتوسط وانصرف السلطان السعدي أحمد المنصور إلى بناء مؤسسات قوية، وجيش قادر على كبح جماح التمرّدات واستعداد لمواجهة الأخطار الخارجية.

وعلى الرغم من ولوج عدد من الطامعين في السلطة والمنازعين في مشروعية السلطان أحمد المنصور سواء إلى ولاية الجزائر أو إلى إسبانيا، فإنّهم لم يستطيعوا إقناع من لجأوا إليه بالتدخل المباشر، وبقي بعضهم ورقة يفاوض بها الإسبان المغرب من أجل تحقيق بعض التطلعات المادية.

وعندما توفي أحمد المنصور عام 1603، ولأنه فشل في تأمين انتقال السلطة قبل وفاته[2]، فقد اندلع الصراع بين ابنيه زيدان والمأمون[3]، بعد تحييد الإبن الثالث أبي فارس. وقد كان للابنين ولاءاتهما "لطرفي الصراع" في البحر الأبيض المتوسط؛ فكان المأمون يعوّل على إسبانيا من أجل مساعدته للانفراد بالعرش؛ فجرت بينه وبين الإسبان مراسلات وسعى إلى تقديم الامتيازات والتنازلات للإسبان، ومن ذلك مثلًا أنّه سلّم لهم مدينة العرائش (1609) ذات الموقع الإستراتيجي المهم في النشاط القرصني في عرض البحر الأبيض المتوسط[4].

أمّا زيدان السعدي، فقد سعى من جهته إلى طرق الأبواب العثمانية، وإن لم يفرّط في روابطه الأوروبية. ففي عام 1611 أبرم اتفاقية مع فرنسا على شاكلة الاتفاقية العثمانية الفرنسية المبرمة عام 1536. وعلى الرغم من حادثة السفير كاسطلان[5]، فإنّه تشبّث بالحفاظ على استمرارية هذه العلاقات. ولم يجعل من إسبانيا عدوًا على الرغم من إدراكه دعم السلطات الإسبانية لمنازعه محمد الشيخ المأمون؛ فقد حفظ الأرشيف الإسباني رسالة

1 يعتبر فرناند بروديل هذه السنة سنةً حاسمة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط؛ إذ نقلت هذا العالم من زمن صراع الإمبراطوريات إلى زمن صراع القراصنة.

2 اتسمت العلاقات بين المنصور وولي عهده محمد الشيخ المأمون بالتوتر إلى درجة أنّه زجّ به في السجن قبيل وفاته؛ لسوء سيرته وأخلاقه؛ وولّى ابنيه زيدان في فاس وأبا فارس في مراكش.

3 اندلع الصراع بين أبي فارس وزيدان، ورغبة في خلق نوع من التوازن، سارع أبو فارس لإطلاق سراح شقيقة المأمون الذي استأثر بالسلطة ليصبح الصراع قائمًا بين المأمون وزيدان.

4 كانت العرائش من بين أهم المدن القرصنية في شمال أفريقيا وكانت تحتضن جالية تركية مهمة منذ النصف الأول من القرن السادس عشر إلى درجة أنّ معظم الأتراك الذين ساهموا في معركة وادي المخازن كانوا من القراصنة المقيمين في مدينة العرائش، ولذلك وضعها الإسبان نصب أعينهم وظلوا يطمحون في السيطرة عليها حتى زمن السلطان أحمد المنصور، وقد كان المنصور يعدهم بها كلما شعر باهتزاز عرشه.

5 في عام 1604 عين كاسطلان سفيرًا لبلاده في الجزائر وعقب انتهاء مهمته عين مكان سفير فرنسا في المغرب G. Curiol عام 1611. ولما كان مولاي زيدان منشغلًا بالحرب مع إخوانه كلف كاسطلان بنقل الخزانة التي ورثها عن أبيه المنصور، وقد حدث أن أسرت السفينة الفرنسية التي كانت تقل هذه الخزانة، ما تسبب في حادثة ديبلوماسية بين المغرب وفرنسا، انظر:
Charles Penz, *Personnalités et familles françaises d'Afrique du nord – Maroc 1533-1814* (Paris, Editions S.G.A.F, 1948), p. 56.

من زيدان إلى الملك فيليب الثالث Philip III [6] بتاريخ ربيع الثاني 1017ه/ آب/ أغسطس 1608. ولم تنل جهود إنكلترا من هذه العلاقات؛ إذ حاولت استمالة زيدان والعمل على إقناعه بضرورة تشكيل حلف ضد إسبانيا. وكانت إنكلترا - كما يقول زيدان - مستعدة لتقديم دعم مالي كبير[7].

إنّ كثافة هذه العلاقات كانت تدلّ على حرص زيدان على فرض نفسه مخاطبًا وحيدًا داخل المغرب، وإنّه الملك الشرعي، فهي محاولة منه لكسب "شرعية دولية".

وإذا كانت علاقات زيدان بأوروبا موثّقة، فإنّ علاقاته مع الباب العالي ظلّ يكتنفها الكثير من الغموض بسبب ضعف التوثيق. فقد اعتمد الأوروبيون على ما كان يشاع في ذلك الوقت، والشائعات هي التي غذّت المصادر المغربية المهتمة بهذا الموضوع. وينحصر ما تداولته المصادر المغربية في موضوع علاقات زيدان بالعثمانيين في ما يلي:

- لجوء زيدان بمحض إرادته إلى طلب المعونة التركية[8].
- سفارة مغربية إلى إسطنبول قادها عبد العزيز الثعالبي، وهو السفير الذي وصل إلى إسطنبول للمرة الثانية؛ إذ يذكر أنّه كان قد حلّ بها مبعوثًا من السلطان مولاي أحمد المنصور. ويذكر أيضًا أنّه مكث بها خلال المرة الثانية "ثلاثين شهرًا"[9].
- توجيه رسالتين إلى الدولة العثمانية[10]: الأولى موجّهة من زيدان إلى "سلطان البحرين والعراقين" وتفصح هذه الرسالة أنّه بعد "إزاحة الموانع" والقضاء على "فتن الخوارج عن متابعة الاتصالات بين الباب العالي و زيدان رجوعًا إلى عهود الآباء لجمع الكلمة"؛ أمّا الرسالة الثانية فموجّهة من زيدان إلى خليل باشا، وتتحدث عن انحراف مكّن العدو من ثغر من ثغور المسلمين.
- الدعم الذي قدّمه العثمانيون لزيدان؛ إذ يذكر الإفراني أنّ السلطان العثماني جهّز لزيدان "من جيش الأتراك اثني عشر ألفًا، وركبوا البحر فغرقوا جميعًا ولم ينج منهم إلاّ غراب واحد في شرذمة قليلة"[11].

أمّا المصادر الأجنبية فهي وإن اتفقت مع المصادر المغربية حول لجوء زيدان السعدي إلى إسطنبول، فإنّها تورد أنّ توجّه زيدان بطلب المعونة، كان استجابة للرسالة التي بعث بها الصدر الأعظم خليل باشا وجاء فيها قوله "فلتعلم فخامتكم أنّنا سنبعث إليكم برسالة أخرى نطلب منكم فيها إيفاد سفير مصحوب برسالة سامية ومحملًا بالهدايا النفيسة والنادرة، لتجديد روابط الصداقة التي تجمع بيننا وتمتينها"[12]. وتورد الوثائق الأجنبية – وهذه المرّة الوثائق الهولندية - إنّ الباب العالي على الرغم من ذلك لم يستجب بالشكل الذي تصوّره المصادر المغربية؛ ففي رسالة بتاريخ 25 آذار/ مارس 1617[13]، نجد أنّ السلطان العثماني لم يعمل إلاّ على تحميل المبعوث المغربي رسالة ملأها بتعابير منمّقة حول استمرار العلاقات الودية بين المغرب والباب العالي. وفي رسالة بعث بها كورنيلس هاغا Cornelis Haga إلى الولايات العامة في آذار/ مارس 1617، يذكر أنّ السلطان العثماني اكتفى بإرسال خلعة وسيف إلى الأمير المغربي، وأمر باشا الجزائر بالتدخّل لمساعدة زيدان[14].

والوثيقة التي نقدّمها تسير في اتجاه إلقاء أضواء كاشفة عن تاريخ العلاقات المغربية العثمانية في النصف الأوّل من القرن السابع عشر من خلال المصادر العثمانية.

---

6 Chantal de La Véronne, "Relations entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié du XVIe siècle et le début du XVIIe siècle (1554-1616)", in *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, no. 15-16, (1973), p. 391.

7 أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج 6 (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1997)، ص 49.

8 يقول الإفراني: "ثم إنّ زيدان لما هرب من فاس حسبما بيّناه قبل، قصد تلمسان، فلم يزل مقيمًا بها وكان بعث إلى ترك الجزائر ليستعين بهم على إخوته[...]". انظر: محمد السوسي الإفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، هوداس (محقق) (باريس، د.ت)، ص 293.

9 ينظر ما كتبه الثعالبي نفسه عن زيارته إلى إسطنبول وهو محفوظ في الخزانة الوطنية بباريس ضمن مجموع رقم 524.

10 مجهول، **رسائل سعدية**، عبد الله كنون (محقق) (تطوان: دار الطباعة المغربية، 1954)، ص 158-157.

11 الإفراني، ص 239.

12 Véronne, p. 392.

13 Henry de Castries, *Les sources inédites de l'histoire du Maroc*. Archives et bibliothèques des Pays- Bas, Vol. II, pp. 671-672.

14 Ibid., Vol. III, pp. 26-27.

وقبل تقديم فحوى الرسالة لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الوثيقة مستلّة من كتاب فريدون بك **منشآت السلاطين**[15]، ولم نعثر لها على أثر أثناء تحرياتنا في الأرشيف العثماني. كما أنّ الوقائع التي توردها الوثيقة لم يكن لها أي صدًى في النصوص العثمانية.

بيد أنّ أهمّ إشكال يطرحه استعمال النصّ هو وجوده ضمن كتاب أنجز في مرحلة سابقة عن تاريخ إنتاجه؛ فقد كتبت الرسالة في آذار/ مارس 1617، في حين أنّ فريدون بك توفي عام 1583. و فريدون بك هو أحد المؤرخين العثمانيين البارزين، ورئيس الكتّاب زمن الصدر الأعظم صوقللي باشا. اشتغل بالدفترداراية المركزية والتحق عام 1553 بولاية الروملي ليشتغل إلى جانب محمد صوقللي باشا، عندما كان واليًا عليها، ورافقه عندما أصبح صدرًا أعظمَ. وقد أدّى فريدون بك دورًا أساسيًا في المفاوضات العثمانية الصفوية من أجل تسليم الأمير بايزيد اللاجئ آنذاك في البلاط الصفوي. وفي عام 1570 عيّن فريدون بك رئيسًا للكتّاب ورقّي عام 1573 إلى رتبة نشانجي. وفي عام 1575 قدّم فريدون بك كتابه **منشئات السلاطين** للسلطان مراد الثالث، غير أنّه لم ينل حظوة في أوساط هذا السلطان الذي لم يكن ينظر إليه بعين الرضى لكونه أحد "محمييّ" الصدر الأعظم صوقللي[16]، فأقيل من منصب الناشنجي، وكان ذلك بمنزلة مؤشّر على نهاية عهد الصدر الأعظم القوي. وعلى الرغم من أنّه تولّى مناصب أخرى، فإنّها لم تكن في نفس مكانة المناصب التي تبوّأها سابقًا. غير أنّه، وبعد مقتل صوقللي باشا عاد فريدون بك ليسطع نجمه مرة أخرى؛ إذ عُيّن نشانجيًا وتزوج عائشة سلطان ابنة رستم باشا وحفيدة السلطان سليمان القانوني. وقد توفي فريدون في مكتبه عام 1583.

أمّا كتابه **منشآت السلاطين**، فهو عبارة عن تجميع للوثائق الرسمية، من فرمنات ورسائل سلطانية واتفاقيات، ويورد المؤرخ سلانيكي أنّ الكتاب تضمن ما ينيّف على 250 وثيقة موزّعة على عهود السلاطين الأحد عشر إلى عهد السلطان سليم الثاني. وقد طبع الكتاب مرتين، ووصل عدد وثائقه إلى 735 وثيقة في طبعته الأولى و841 وثيقة في طبعته الثانية؛ وهو ما يعني أنّ عددًا من الوثائق تمّ حشرها، ويرى أحد الباحثين أنّ من أصل مجموع الوثائق ما يزيد عن الثلاثين وثيقة لاحقة لعام وفاة فريدون بك. وتعدّ الوثيقة التي نحن بصددها واحدة من هذه الوثائق التي تمّت إضافتها إلى **منشآت السلاطين**.

وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة وجّهها السلطان العثماني أحمد الأول إلى مولاي زيدان، بتاريخ آخر صفر الخير من عام 1026هـ/ آذار/ مارس 1617.

وتسمح الوثيقة بتسجيل الملاحظات التالية:

- أنّها تضع اليد على وصول السفير المغربي عبد العزيز الثعالبي إلى إسطنبول "حاملًا التحف والهدايا والأسلحة المرصّعة والحرير إلى بلاط السلطان"، وتذكر التحفَ والهدايا وليس عشرةَ قناطر من الذهب كما تذهب إلى ذلك المصادر المغربية.
- تخبر الوثيقة بوصول رسالتين: الأولى ولعلّها كانت استجابة لما نقرأه في وثيقة الأرشيف الإسباني، وتحتوي على "مواد المحبة والوداد" وتنسجم محتوياتها مع ما ورد في الرسالة التي توجد ضمن رسائل سعدية. أما الثانية فتحتمل أن تكون جوابًا على رسالة أخرى، كانت قد استمددت العثمانيين في صرف "همّتهم إلى إبطال طريق الهند الذي يتقوى بهم اعتضادهم (الكفار) ويتمشّى استنادهم[....]"
- تؤكّد الوثيقة وعي الباب العالي بخطورة احتلال "العرائش والمعمورة وما يضاهيها من القلاع المشهورة". وإذا كانت الرسالة التي بعث بها خليل باشا تشير إلى أنّه "إذا ارتأت إرادة السلطان إرسال عسكر أو أوامر إلى حكّام تلك المناطق لدفع الضرر والفساد" وتؤمّل في ذلك على "وجوب التعاون"، فإن الرسالة الثانية تبدأ بوضع شرط التعاون وتؤاخذ مولاي زيدان لعدم طلبه دعم الباب العالي في الوقت المناسب، فقد "كان اللائق بكم والواجب على ذمتكم أن تستمدوا وتستعينوا بأعتابنا قبل أن يتصادم الصفوف ويتزاحم الزحوف". كما تبيّن الرسالة أنّ العثمانيين "قادرون على إيصال عسكر يضيق عليهم الطريق".

ويظهر من خلال الوثيقة أنّ الدولة العثمانية لم تكن قادرة على الاستجابة للمطالب السعدية الزيدانية، إذ تشير الوثيقة الثانية إلى أنّه "لا يشغلنا عن الإمداد بعون رب العباد إلّا انشغالنا بما نحن عليه من إعداد لوازم الجهاد، لاستئصال أهل الرفض والإلحاد[...] وتجهيز العمارتين العظيمتين إلى البحرين المسجورين بعساكرنا المنصورة[....]" ولعلّ ما يؤكّد صدق ما نذهب إليه المصادر الأجنبية/الأوروبية التي حصرت الرد العثماني

15 أحمد، فردون بك. **منشآت السلاطين**.(تقويم خانه عامره: اسطنبول، 1848).

16 كان محمد صوقللي صدرًا أعظم للسلاطين سليمان القانوني وسليم الأول ومراد الثالث، وإذا كان نجمه تألّق زمن حكم سليم الثاني فإنّه بدأ يعاني من مشاكل عندما تولّى السلطان مراد بسبب تنامي تيّار ينتصر للحرب مع الصفويين، فيما كان هو منافحًا عن الاستمرار في الحرب ضد إمبراطورية الهابسبورغ. واستطاع هذا التيار أن يؤثّر في السلطان مراد وهكذا انعكس ذلك على موقف مراد من الصدر الأعظم ومحمييّه.

في نميقة وسيف وخلعة. وتبقى الرواية التي توردها المصادر المغربية حول غريق المساعدات العثمانية مجرد شائعة كان من وراء ترويجها، دون شك، زيدان السعدي لربح بعض الوقت وأسلوب لمواجهة منازعه في السلطة.

والظاهر أنّ اتفاقية 1580 كانت وراء تعامل الدولة العثمانية مع مطالب زيدان السعدي؛ إذ لم يعد هناك من رهان لضم المغرب. وقد تكون الأسباب التي دفعت الدولة العثمانية إلى الانسحاب من عالم المتوسط هي نفسها التي كانت وراء الرد العثماني اللبق على رسائل زيدان. فقد كانت الدولة العثمانية منشغلة بجبهات متعددة، إذ دخلت في حروب – كما تقول الرسالة – ضد الكفرة والأعراب الأشرار والملحدين ولعلّ هذه الحروب هي التي جعلت السفير المغربي الثعالبي يكتب تاريخًا للدولة العثمانية[17] على عهد السلطانين أحمد الأول وعثمان الثاني، وربما كان قصده من ذلك رغبته في إعطاء صورة عامة عن الوضعية التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، وأن يبيّن انشغال عثمان الثاني بالحروب مع الروم منذ السنوات الأولى لتوليته.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك صعوبة العلاقات بين المركز والمحيط – أي بين إسطنبول وولاياتها الطرفدراية – إذ لم يعد ولاة الجزائر يمتثلون لأوامر الإدارة العثمانية، وأصبحوا يتصرّفون بمحض إرادتهم وليس بما يمليه الباب العالي؛ ففي السابق كان الباب العالي يوكل أمر التصرّف إلى باشاوات الجزائر مثلما حدث مع محمد الشيخ السعدي (1553) وعبدالملك السعدي (1576)، وكان هؤلاء ينفّذون ما يصدر إليهم من أوامر دون تردّد، أما مع نهاية القرن السادس عشر فقد بات من الصعب أن تنصاع ولايات الشمال الأفريقي للأوامر الصادرة من الإدارة المركزية، ونعتقد أنّ ذلك كان من بين تبعات هدنة 1580.

نص الوثيقة[18]

الحمد لله الذي أعلى معالم الإسلام وبشّر المجاهدين في سبيله بالنعيم المقيم في دار السلام، وأكرم المؤمنين بتوفيق المجاهدين غاية الإكرام، وجعل عبدة الأصنام وعندة المشركين ومردة الملحدين منحوسة الرؤوس ومنكوسة الأعلام، والصلاة والسلام على عارف الحق عن الباطل، وخارق شرك الشرك بشرعه المبشّر بالدّوام، سيّدنا ونبيّنا محمّد المبعوث بسيف الجهاد وحسام الانتقام على قاصدي حصين حصن الإيمان والإسلام وعلى آله العظام وأصحابه الكرام الذين سعوا في ميادين الدين بأقدام الإقدام صلاة وسلامًا دائمين إلى قيام الساعة وساعة القيام.

أما بعد نسلّم على ذلك المقام الجليل سلام إكرام وتبجيل، ونثني إلى ذلك المعهد الجزيل أعنّة الثناء الجميل، فننهي إلى المقّر العزيز والمحلّ الحريز لأحب أحبابنا وأصدق أصدقاء أبوابنا عضد دولتنا الباهرة الزاهرة، عصب صولتنا القاهرة، حارس الحصون الغربية لممالك الإسلام، فارس معارك إرغام كل مرغام، مشيد أركان الانتظام، مؤيّد أهل الاعتصام بالعروة الوثقى التي ما لها انفصام، مبدّد فرق البغي والاختصام، أليفنا المبجّل العلي الشأن، خليفنا المكمّل السنى المكان، صاحب العزّ والمجد والسيادة، رفيع الشأن المولى زيدان حفظه الله الملك المنّان عن تطرق مكايد الزمان، وأظفره على الكفرة وأهل الطغيان.

أنّه قد وصل إلينا من مقامكم الشريف حفّ بألطاف الملك اللطيف، كتابان كريمان وبِدُرّ الإخلاص نظيمان اللذان يتعطّر بروائح أنفاسهما النفيسة مشام الآفاق، وتفوح من مضامينهما فيَح تأكّد الميثاق بحسّ الوفاق، المبعوثان مع العالم العابد الورع الزاهد العارف جامع المحامد والأدب والمعارف، مفخر أرباب التمييز الشيخ عبد العزيز.

أحدهما اجتمع فيه مواد المحبة والوداد، وبرز أنوار بدر المراد من أفق الفؤاد، وذكر فيه محامد والدنا المرحوم السلطان الماجد، ومكارم أجدادنا الأكارم الأماجد، السلاطين العثمانية والخواقين الإيمانية الذين كانوا خلفاء الله تعالى في أرضه وأقطاره. ولو كانت المحامد وجوهًا لكانوا غررها، ولو كانت الحمية بدرًا لكانوا نوره وسناه، ولو كانت الشجاعة غصنًا لكانوا نوره وخباه، وسطر فيه ما كان بين آبائكم الكرام وبين أسلافنا الفخام الذين

17 خلال اشتغالنا بنشر **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية** لمؤلف مجهول تمكّنا من العثور في الخزانة الوطنية بباريس على **تاريخ الدولة العثمانية في بداية القرن السابع عشر**، لعله من وضع السفير المغربي الثعالبي.

18 انظر نص الوثيقة الأصلي في الملاحق.

حصل لهم تمام الصيت وعظيم الفخار والذكر الجميل الذي عمّ زوايا الآفاق والأقطار من الحب الذي لا يقدر صيّاد القلم أن يصيد حمائم بيانه بحبات التقاط وشبكات الحروف من الانخراط سلك الوفاق والالتئام الذي ينال به في إحياء الدين وإعزازه كل مرام، وما أوجب إرسال أذيال التأخير والإمهال من الاشتغال بقتال الكفار الملاعين، ومحاربة أعداء الدين وأحزاب الشياطين، والمجاهدة في رفه آفتهم، والاستقصاء في استيصال شأفتهم، وبيّن فيه توجّههم بعدما أضحت تلك الأقطار آمنة الأطراف، وصارت بكفاية مجاهدتكم سالمة الأكناف إلى إظهار ما ادخرتم في البال من إرسال الكتاب، وتجهيز رسلهم ليبنوا ما عندكم من جميل الموالاة والمخالصة مشافهة، ويقرّروا ما أنتم عليه من عهود الآباء والأجداد مواجهة، وطلبكم لحسن معاودتهم من ديارنا، وانصرافهم عن أقطارنا، بما يكون سبيلًا لإعزار أهل الهدى، وإذلال الكفرة المتردين في هاوية الردى، وباعثًا لما يشبه من الإسلام العصا، وتشدّ ببركته هامة من كفر وعصى.

وأمّا المكتوب الآخر فهو أيضًا مصحوب بالمبالغة في تنويه المحبة المغروسة، وتروية المودة المؤسّسة المحروسة، ومشتمل على ذكر ما خصّه الله تعالى بالسلاطين العثمانية والخواقين الإيمانية من الخصائل التي يتضايق عن عددها طوق المحصي، ويتقاصر دون حصرها باع المستقصي، ومخبر عمّا اعترفهم في البحر ما أساطيل العدو وأباطيل أهل الطغيان والعتوّ، حتى أوجب انقلابهم واقتصى قفولهم وإيّابهم، وعن مجادلة إرسالهم على بلاد بعد ما تعذّر السفر من جهة الجزائر لمانع وقع هناك، ومنبئ عن اجتماع الكفرة وعهدهم الصلح بين طواغيتهم الفجرة، وعن قصدهم والعياذ بالله على البلاد الإسلامية والديار الإيمانية أذلّهم الله تعالى وخذلهم، وصرف وجوه الخسف قبلهم، وعن استمدادكم منّا في صرف همتنا العلية إلى إبطال طريق الهند الذي يتقوّى به اعتضادهم، ويتمشّى استنادهم واعتمادهم، وعنايتنا بإعانة ولي، والهداية مصروفة في كل حين إلى نصرة أولياء الدين، ونكاية أعداء الله الكافرين، حتى لايمسّ المسلمين شرّ العدوّ ومضرّته، ولا يصدم المؤمنين فساد أهل الشرك ومعرّته، ولا يخفى عن علمكم أنّ من عادتنا الجميلة الموروثه من آبائنا وأجدادنا أصحاب مآثر الجليلة، أن نتلقّى من يرد علينا، ويرغب إلينا من البلاد الشاسعة للترحيب والترهيب باسطين له بساط الأنس ليفوز من سفره بنصيب، وسمو في دفع ما يرهبونه عن ساق الجد، ونستفرغ في تحصيل ما يطلبونه أقصى الوسع والجهد.

فلمّا قرأت علينا آيات إخلاصكم، واستقرّت لدينا مواد ودادكم واختصاصكم، وأحضر رسلكم في حضرتنا العليّة في مقام المثول، وعرض علينا هداياكم البهيّة المتلقاة بالقبول، أثنينا على تلك الأخلاق الطاهرة والأعراف الزاهدة ثناء متأرج النفخات، متبرّج الصفحات، فأدمتم في مراعاة الحقوق ساعين ولدولتنا الإسلامية راعين، لا تلقون من سدّة العزّ والإقبال سوى النظر بعين الإعزاز والإجلال، وصون التواد عن التضاد، والإخلال عن الاختلال، ونرجو من الله ذي الرحمة والرأفة ألّا يخسف بدر كمال المؤالفة بحلوله أرض بعد المسافة، ويقينا وأيّاكم من مسّ آفة ومخافة، ولما أدرج في ذلك الدرج الجليل من المساعي بالسعي الجميل في إبطال أهل التضليل، فنحن بإذنه سبحانه وتعالى نتقيّد بأدائه راجين منه تعالى عونه وإحسانه، ونرسل الأوامر الشريفة إلى أمرائنا المحافظين في حدود البصرة، ونأمرهم في ذلك الفتوة والنصرة. ثم لا يذهب عن علمكم، أنّه واضح عندنا، واتّضح لدينا شرّ الكفّار وبعض الأعراب الأشرار، قهرهم الله القهّار، وأنزلهم دار البوار، في بعض ديار تلك الأقطار مثل العرايش والمعمورة وما يضاهيهما من القلاع المشهورة، وعجزكم عن إقلاعها وانتزاعها، وتطهير تلك الأراضي وبقاعها، وكان اللائق بكم والواجب على ذمّتكم أن تستمدوا بنا، وتستعينوا بأعتابنا، قبل أن يتصادم الصفوف، ويتزاحم الزحوف، فنحن بحول الله وطَوْله قادرون على إيصال عسكر يضيق عليهم الطريق والمسالك، ويلجئهم إلى المضايق والمهالك، ونخلّص المسلمين من وابق مكرهم وعوائق غدرهم، وتكون إعانتنا هذه مرغمة لأنوف الكافرين، ومكسرة لجموع أهواء الخاسرين المتجاسرين، حتى يتقطّع أطماع أعدائكم من تلك البلاد، ويندفع عنها أسباب الشر ومواد الفساد، ولا يشغلنا عن الإمداد بعون رب العباد إشغالنا لما نحن عليه من إعداد لوازم الجهاد لاستيصال أهل الرفض والإلحاد، وخرق شرّ شوكة أهل الضلال والفساد، وتجهيز العمارتين المعظمتين إلى البحرين المسجورين بعساكرنا المنصورة حفظهم الله مما يورث الشين في الدارين، ونحمد الله على ما أسبغ علينا من جزيل آلائه، ونستزيده سبحانه جلائل نعائمه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حرّر هذا السِفْر المبارك في أواخر صفَر الخير في سنة ست وعشرين وألف من هجرة من له العز والشرف عليه الصلاة والسلام ما ختمت الصلاة بالسلام.

﴿ مشارالیه فاس حاکمی طرفندن تقدیم اولنمش اولان ایکی قطعه نامه سنه جوابا اصدار ﴾
﴿ بیوریلان نامهٔ همایونك صورتیدر ﴾

الحمد لله الذی اعلی معالم الاسلام وبشر المجاهدین فی سبیله بالنعیم المقیم فی دار السلام واکرم المؤمنین بتوفیق المجاهدین غایة الاکرام وجعل عبدة الاصنام وعبدة المشرکین ومردة الملحدین منحوسة الرؤس ومنکوسة الاعلام والصلوة والسلام علی عارف الحق عن الباطل وخارق شرك الشرك بشرعة المبشر بالدوام سیدنا ونبینا محمد المبعوث بسیف الجهاد وحسام الانتقام علی فاصدی حصین حصن الایمان والاسلام وعلی آله العظام واصحابه الکرام الذین سعوا فی میادین الدین باقدام الاقدام صلوة وسلاما دائمین الی قیام الساعة وساعة القیام اما بعد نسلم علی ذلك المقام الجلیل سلام اکرام وتبجیل ونثنی الی ذلك المعهد الجزیل اعنة الثناء الجمیل فتنهی الی المقر العزیز والمحل الحریز لاحب احبابنا واصدق اصدقاء ابوابنا عضد دولتنا الباهرة الزاهرة عصب صولتنا القاهرة حارس الحصون الغربیة لممالك الاسلام فارس معارك ارغام کل مرغام مشید ارکان الانتظام مؤید اهل الاعتصام بالعروة الوثقی التی مالها انفصام مبدد فرق البغی والاختصام الینا المبجل العلی الشان خلیفنا المکمل السنی المکان صاحب العز والمجد والسیادة رفیع الشان المولی زیدان حفظه الله الملك المنان عن تطرق مکاید الزمان واظفره علی الکفرة واهل الطغیان انه قد وصل الینا من مقامکم الشریف حف بالطاف الملك اللطیف کتابان کریمان وبدر الاخلاص نظیمان الذان یتعطر بروایح انفاسهما النفیسة مشام الافاق وتفوح من مضامینهما فوایح تأکد المیثاق بحسن الوفاق المبعوثان مع العالم العابد الورع الزاهد العارف جامع المحامد والادب والمعارف مفخر ارباب التمیز الشیخ عبد العزیز احدهما اجتمع فیه مواد المحبة والوداد وبرز انوار بدر المراد من افق الفؤاد وذکر فیه محامد والدنا المرحوم السلطان الماجد ومکارم اجدادنا الاکارم الاماجد السلاطین العثمانیة والخواقین الایمانیة الذین کانوا خلفاء الله تعالی فی ارضه واقطاره ولو کانت المحامد وجوها لکانوا غررها ولو کانت الجمیة بدرا لکانوا نوره وسناه ولو کانت الشجاعة غصنا لکانوا نوره وخباه وسطر فیه ما کان بین آبائکم الکرام وبین اسلافنا الفخام الذین حصل لهم تمام الصیت وعظیم الفخار والذکر الجمیل الذی عم زوایا الافاق والاقطار من الحب الذی لایقدر صیاد القلم ان یصید جمایم بیانه بحبات النقاط وشبکات الحروف من الانخراط سلك الوفاق والالتیام الذی ینال به فی احیاء الدین واعزازه کل مرام ومرام واوجب ارسال اذیال التأخیر والامهال من الاشتغال بقتال الکفار الملاعین ومحاربة اعداء الدین واحزاب الشیاطین والمجاهدة فی رفع آفتهم والاستقصاء فی استیصال شأفتهم وبین فیه توجهکم بعد ما اضحت تلك الاقطار امنة الاطراف وصارت بکفایة مجاهدتکم سالمة الاکناف الی اظهار ما ادخرتم فی البال من ارسال الکتاب وتجهیز رسلهم لیبینوا ماعندکم من جمیل الموالاة والمخالصة مشافهة ویقرروا ما اتم علیه من عهود الاباء والاجداد مواجهة وطلبکم لحسن معاودتهم من دیارنا وانصرافهم

عن اقطارنا

عن اقطارنا بمايكون سببا لاعزاز اهل الهدى واذلال الكفرة المتردين في هاوية الردى
وباعثا لما يشدبه من الاسلام العصا وتشد ببركته هامة من كفر وعصى واما المكتوب
الاخر فهو ايضا محبوب بالمبالغة في تنويه المحبة المغروسة وتروية المودة المؤسسة المحروسة
ومشتمل على ذكر ماخصه الله تعالى بالسلاطين العثمانية والخواقين الايمانية من الخصائل
التي يتضايق عن عدها طوق المحصي ويتقاصر دون حصرها باع المستقصي ومخبر عما اعترفهم
في البحر من اساطيل العدو واباطيل اهل الطغيان والعتو حتى اوجب انقلابهم واقتضى قفولهم
واياهم وعن مجادلة ارسالهم على بلاد بعدما تعذر السفر من جهة الجزاير لمانع وقع هناك
ومبنيء عن اجتماع الكفرة وعهدهم الصلح بين طواغيهم الفجرة وعن قصدهم والعياذ بالله
على البلاد الاسلامية والديار الايمانية اذلهم الله تعالى وخذلهم وصرف وجوه الخسف قبلهم
وعن استمدادكم منا في صرف همتنا العلية الى ابطال طريق الهند الذي يتقوى به اعتضادهم
ويتمشى استنادهم واعتمادهم وعنايتنا باعانة ولي الهداية مصروفة في كل حين الى نصرة
اولياء الدين ونكاية اعداء الله الكافرين حتى لايمس المسلمين شر العدو ومضرته ولايصدم
المؤمنين فساد اهل الشرك ومعرته ولايخفى عن علمكم ان من عادتنا الجميلة الموروثة آبائنا
واجدادنا اصحاب مآثر الجليلة ان نتلقى من يرد علينا ويرغب الينا من البلاد الناسعة للترحيب
والترهيب باسطين له بساط الانس ليفوز من سفره بصبب وسموق دفع مايرهبونه عن ساق
الجد ونستفرغ في تحصيل مايطلبونه اقصى الوسع والجهد فلما قرأت علينا آيات اخلاصكم
واستقرت لدينا مواد ودادكم واختصاصكم واحضر رسلكم في حضرتنا العلية في مقام المثول
وعرض علينا هداياكم البهية المتلقاة بالقبول اثنينا على تلك الاخلاق الطاهرة والاعراق
الزاهدة ثناء متدارج النفحات متبرج الصفحات فادمتم في مراعاة الحقوق ساعين ولدولتنا
الاسلامية راعين لاتلقون من سدة العز والاقبال سوى النظر بعين الاعزاز والاجلال
وصون النواد عن التضاد والاجلال عن الاختلال ونرجو من الله ذي الرحمة والرأفة
ان لايخسف بدر كمال المؤالفة بحلوله ارض بعد المسافة ويقينا واياكم عن مسافته ومخافة واما
مادرج في ذلك الدرج الجليل من المساعة بالسعي الجميل في ابطال اعمال اهل التضليل فنحن
باذنه سبحانه وتعالى نتقيد بادائه راجين منه تعالى عونه واحسانه ونرسل الاوامر الشريفة
الى امرائنا المحافظين في حدود البصرة ونأمرهم في ذلك الفتوة والنصرة ثم لايذهب
عن علمكم انه وضح عندنا واتضح لدينا شر الكفار وبعض الاعراب الاشرار قهرهم الله القهار
وانزلهم دار البوار في بعض ديار تلك الاقطار مثل العرايس والمعمورة ومايضاهيهما من القلاع
المشهورة ويجزكم عن اقلاعها وانتزاعها وتطهير تلك الاراضي وبقاعها وكان اللايق بكم
والواجب على ذمتكم ان تستمدوا بنا وتستعينوا باعتابنا قبل ان يتصادم الصفوف
ويتزاحم الزحوف فنحن بحول الله وطوله قادرون على ايصال عسكر بضيق عليهم
الطريق ولمسالك ويلجئهم الى المضايق والمهالك ونخلص المسلمين من بوايق مكرهم
وعوايق عذرهم وتكون اعاننا هذه مرغمة لانوف الكافرين ومكسرة بجموع اهواء الخاسرين
المتجاسرين حتى ينقطع اطماع اعدائكم من تلك البلاد ويندفع عنها اسباب الشر
ومواد الفساد ولايشغلنا عن الامداد بعون رب العباد اشغالنا بما نحن عليه من اعداد
لواذ الجهاد لاستيصال اهل الرفض والالحاد وخرق شرك شوكة اهل الضلال والفساد
وتجهيز المعمارتين المعظمتين الى البحرين المسجورين بعساكرنا المنصورة حفظهم الله
ممايورث الشين في الدارين ونحمد الله على ما اسبغ علينا من جزايل الائه ونستزيده سبحانه

جلائل نعمائه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته حرر هذا السفر المبارك فى اواخر صفر الخير فى سنه ست وعشرين والف من هجرة من له العز والشرف عليه الصلوة والسلام ماختمت الصلوة بالسلام

ودور دبرين

قائمة المصادر والمراجع

الوثائق

- الثعالبي، عبد العزيز. **كتاباته عن زيارته لإسطنبول**، ضمن مجموع الخزانة الوطنية بباريس ضمن مجموع رقم 524.

المراجع العربية

- الإفراني، محمد. **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، هوداس (محقق) باريس، د.ت.
- مجهول، **رسائل سعدية**، عبد الله كنون (محقق) تطوان: دار الطباعة المغربية، 1954.
- الناصري، أحمد بن خالد. **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج 6 ، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1997.

المراجع الأجنبية

- De Castries,Henry. *Les sources inédites de l'histoire du Maroc*. Archives et bibliothèques des Pays- Bas, Vol. II.
- De La Véronne, Chantal, "Relations entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié du XVIe siècle et le début du XVIIe siècle (1554-1616)", in *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, no. 15-16, 1973.
- Penz, Charles. *Personnalités et familles françaises d'Afrique du nord – Maroc 1533-1814* Paris, Editions S.G.A.F, 1948.